شوقي ضيف مفسِّرًا

أ.د. عبد الله التطاوي(*)

تنبه الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - في اتجاه المأثورات، ونبَّه إلى طبيعة ما أقحم عليها من إسرائيليات تتصل بالحديث من بدء الخليقة، و قصص بعض الأنبياء، مثل: مقدار سفينة نوح، ونوع الخشب الذي صُنعت منه. . . وغير ذلك مما لا جدوى من الاستغراق في السعي وراء تفاصيله.

يقول الدكتور ضيف: إن ابن تيمية لاحظَ ذلك في مبحثه القيم عن أصول التفسير، وقد حمل فيه على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير، وسبق أن رأينا ابن تيمية في حملته على المعتزلة والباطنية الذين يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة، إلى معانٍ بعيدة تطابق آراءهم ومعتقداتهم، وما يقصدون إلى إذاعته من مفاهيم وتأويلات.

وخلص ابن تيمية إلى أن خير طرق التفسير هو أنْ يُفسّرَ القرآنُ بالقرآن، ثم الحديث، ثم أقوال الصحابة والتابعين من السلف الصالح، ثم الرأي في مجاله المحدود. ويفتح ابن تيمية الباب أمام المفسّر ليجتهد ويستنبط، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العدة لذلك باستيعابه للذكر الحكيم وآياته ومعانيه المتقابلة، ولأقوال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين فيه، وبعد أنْ يتقنَ العربيّةَ وعلومَ الشريعة، ويعلم دلالات القرآن ويتذوّق خصائصَه البيانية الرائعة.

ثم جاء الإمام محمد عبده فسار على هدي تفسيره، ودعا إلى التسليم بكلِّ ما هو من عالم الغيب، وتلت الإمامَ تفاسيرُ كثيرة: منها ما اهتدى بنهجه، ومنها ما خاض في مباحث علمية قد تجنح إلى شيء من الشطط أحياناً؛ لأنه من الخطأ أن يتخذ القرآن ذريعةً لإثبات نظريات علمية في كل الأحوال، لأن ما ذكر فيه عن الطبيعة يراد به بيان حكمة الله، والتنبيه إلى أسرار الكون؛ دفعًا إلى التأمُّل فيها والتدبُّر، وتأكيدًا على أسرار القدرة الإلهية والإعجاز الرباني قبل أي اعتبار آخر.

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب . جامعة القاهرة ، و نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون خدمة المجتمع والبيئة.

يتضح منهج الدكتور شوقي ضيف في أنه يتخذ من الآية نورًا يهديه إلى مضمونها العام في القرآن، ويحاول وضع هذا المضمون وعرضه في سياقه الطبيعي؛ سواء ما اتصل من ذلك بعظمة الله - سبحانه - أو الرسل، أو الملائكة، أو الجن، أو الشياطين، أو الثواب والعقاب . . . أو غيرها من قضايا الغيب المطلق.

كما يعترف بأنه رجع إلى كثير من كتب التفسير، مثل: تفسير الطبري، والنيسابوري، والزمخشري، والفخر الرازي، والقرطبي، وابن كثير، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والبيضاوي، وأبي حيان، والألوسي، والشيخ محمد عبده. . . وغيرهم.

وتأثير ابن تيمية في تفسير الدكتور شوقي واضحٌ تمامًا في أصول منهجه الذي سار عليه؛ تلك الأصول التي يمكن أن نلتمسَ منها جوانبَ في تفسيره لسورة "الإخلاص" عبر مَا طرحه بين ما فسَّره في كتاب "تفسير سورة الرحمن وسور قصار".

فسَّر الدكتور شوقي سورة الإخلاص التي فسَّرها ابن تيمية، وهو في تفسيرها يبدو واضحًا وموضوعيًا كما هو الحال في سورة الرحمن. يذكر - أولاً - سببَ نزول السورة، وهو بالنسبة لسورة الإخلاص يرى أنها جواب للمشركين حين سألوا الرسول ﷺ أن يصفَ لهم ربَّه ويبيِّن لهم نسبه، فوصفه لهم ونزَّهه عن النسب؛ إذ نفى عنه أن يكون والدًا أو مولودًا، أو أن يكون له شبيهٌ أو مثيل.

وهو يستعين بآيات من القرآن في تفسير ما يتعلق بالآية التي يتعرض لها، ومن أمثلة ذلك استشهاده على كلمة "أحد" بالآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[1]. كما استشهد على وحدانية صفاته تعالى بالآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]، أي: لا في الذات ولا في الصفات، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ

(١) النساء : ١١٦.
(٢) الشورى : من الآية ١١.
(٣) الأنبياء : ٢٢.

مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(١). وفي الدليل على الصفات وتعلقها بذاته تعلقَ إدراك لا جارحة - يرجع إلى آيات كثيرة، من مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادعوه بها﴾(٤).

ومن أمثلة استشهاده بالحديث النبوي الشريف قوله في تفسير كلمة "الصمد"، وكيف أنَّ الله يقبل دعاء المؤمن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥): فالآية صريحة في أنَّ الدعاء لا يُتقبَّل من المعتدين المجاوزين لحدود الله، كَبُر هذا التجاوز أو صغر، وفي الحديث النبوي: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له، وإما أن يكفَّ عنه السوء بمثلها).

وفي الحديث: (إن الرجل لَيُطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمُه حرامٌ ومشربه حرامٌ وملبسه حرامٌ وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟). وهو استفهامٌ أراد به الرسول ﷺ استبعادَ إجابة الدعاء من مثل هذا الغارق في بحور الآثام والخطايا؛ حيث لابدَّ من حسن الانقياد والإخلاص في الطاعة.

ومن أمثلة رجوعه إلى قول السلف تعليلُه لتسمية السورة الكريمة بسورة "الإخلاص"، أو سورة "التوحيد"، حيث ذهب إلى أنها تتضمن خالص التوحيد والصفات القدسية.

وفيها يقول الإمام الغزالي:

عَفْوُ ربِّي وثِقتي بالخلاصِ ... واعْتصامي بِسُورةِ الإخلاصِ

(١) المؤمنون: ٩١.
(٢) الفتح: من الآية ١٠.
(٣) يونس: من الآية ٣.
(٤) الأعراف: من الآية ١٨٠.
(٥) الأعراف: ٥٥

وقيل: إنّ مَنْ يرددها يكون من عباد الله المخلصين الذين أخلصوا له الدين. وفي الأحاديث القدسية: "الإخلاصُ سرٌّ من سرّي استودعتُه قلبَ مَن أحببتُه من عبادي".

ومن قول بعض الأسلاف: "الناسُ كلُّهم هلكى إلا العالمين، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملين، والعاملون كلهم حيارى إلا المخلصين".

ومن أمثلة ما يذهب إلى تفسيره برأيه محاولتُه تبسيط العبارة في فهم معنى الكلمة، كقوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1]: ليس له أحدٌ كفوًا أو مماثلاً في ذاته وصفاته وأفعاله وجميع شؤونه الإلهية، وقد جعل الله هذه الآية خاتمة الآيات قبلها؛ فبعد أن قرّر وحدانيته وعظيم سلطانه، وأنه ملاذ الكون ومخلوقاته، وأنه منزه عن مشابهة الإنسان ومماثلته لتفرده بقدمه وأزليته. قال في صنيعه عامة: إنه ليس له مثيلٌ ولا نظيرٌ من الخلق في أيِّ صنعة ولا في أيِّ فعل، ولا في أيِّ شيء من الأشياء.

ومن الأمثلة الواضحة على اهتمامه بأقوال السلف ما جاء في تفسيره لسورة الرحمن؛ حيث عرض اختلاف السلف حول لفظة (الرحمن) بين الاشتقاق وعدم الاشتقاق. وذكر ما ذهب إليه كلٌّ منهم، واستدلال أصحابه على صحة ما يذهب إليه دون سواه.

فالجمهور يقول: إنها صيغة مبالغة مشتقة من الرحمة، وهي لا تُثَنّى ولا تجمع، واشتقاقها لا يمنع اتخاذَها عَلَمًا على الله عزّ ذكره، لا يشركه فيه غيره عَلَمًا على ذاته، مثلها مثل لفظ الجلالة (الله). يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى﴾[2]، أي: أيًا من الاسمين العظيمين.

ويذهب البعضُ إلى عدم الاشتقاق، ويستدل على ذلك بأن الجاهليين لم يكونوا يعرفون هذا الاسم للذات العلية قبل سماعهم له في القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[3].

(١) الإخلاص: ٤.

(٢) الإسراء: من الآية ١١٠.

(٣) الفرقان: ٦٠.

وقال الغزالي: (الرحمن): العطوف على العباد بالإيجاد أولاً، وبالهداية ثانيًا، وبالإيمان وأسباب السعادة والإسعاد في الآخرة ثالثًا، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم يوم القيامة رابعًا .

وثمة أمثلة كثيرة على كل ما انتهى إليه الدكتور شوقي في منهجه المحكم، ويضيق المجال هنا عن استعراض جميع هذه الأمثلة والشواهد، ولكن قليلها قد يكشف مدى دقته في تمثل هذا المنهج الذي سار عليه السلف وأخذ به ومنهم ابن تيمية، فلم يحد عنهم ولا عنه، بل نهج نهجهم الدقيق في العناية بما في القرآن والحديث وأقوال السلف، ثم أضاف ما يراه صحيحًا طبقًا لما تتطلبه منه ظروف قراء تفسير القرآن في أيامنا، من واقع ثقافته الموسوعية: بلاغيًا وأدبيًا ونقديًا وتاريخيًا ولغويًا .

هذه صورة من منهج شوقي ضيف الذي يميل إلى السلفية الظاهرة في تفسيره بما تتسم به من الشفافية والوضوح، حيث يدرك صحة ما يستند إليه من أقوال السلف، كما يفسر تفسيرًا يتيح لنا فرصة أن نرى فيه اجتهاد العالم باللغة، المتفهم لمعانيها، الملمّ بأسرارها، ليضيف من فهمه وفكره وثقافته إلى ما أبداه السلف من آراء دون ادّعاء أو مزايدة، أو تشويه أو إجحاف أو تشويش، أو استسلام للأقوال المرسلة أو القابلة للمغالطة.

ثم تبقى كلمة تتعلق ببيان مدى الفرق بين نظرة العلماء للتفسير السلفي، وكيف وفق بعضهم بين ذلك وبين حرية إبداء الرأي والفكر:

فمع ما نلمسه لدى بعضهم من هذه الحرية الناتجة عن سعة علم باللغة وعلوم الدين، نجد احترامهم لما سُبقوا إليه وأفادوا منه في فهم ما أتوا به من تفسير، وخاصة لدى الدكتور شوقي الذي يقدم للقارئ تفسيرًا واضحًا يجمع بين أقوال السلف كأحسن ما تكون صحتها ودقتها وبين وجهة نظره، وهو ما لم ينأ عنه - في نفس الفترة تقريبًا - الأستاذ أمين الخولي نظريًا، ولا بنت الشاطئ تطبيقًا؛ ولذا فإن تفسيره يعد إضافة، وإن سبقته محاولات على نفس المستوى، ولكن هذه المحاولات لم تحجب قدراته على إضافة ما يحسن قراءته؛ حيث نلمح عنده من العناية بالتفسير البياني ما يأخذنا بسحر الترتيب القرآني ورونق الأداء اللغوي.

وتبقى نقطة أخرى حول بنت الشاطئ في تعرضها لآراء السلف مع الاحتراس فيها خوفًا من الإسرائيليات؛ ولذا يجب التدقيق في كتب التفسير بالمأثور، ومعرفة ما صنعه أصحابها من تنقيتها من تلك الإسرائيليات ونقدها ، وهو ما تنبه له حتى بعض المستشرقين مثل (جولد تسيهر) .

في النهاية يبدو المنهج قادرًا على إضافة إفادة كبيرة في فهم كتاب الله، مع الوقوف على معانيه الدقيقة، وما احتواه من إعجاز بلاغي احتل به مكانةً سامقة محلها الطبيعي يظل كامنًا في أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

وفي الختام تظل الكلمة واجبةً حول جسارة الإقدام على تفسير النص القرآني الكريم، من منطلق الرغبة في الفهم والاستيعاب، أو مساعدة الآخر على فهم الدلالات والأبعاد، وهو مطلب - بلا شك - نبيل نُبلَ الغاية والمقصد، ولكنه مطلب - في الوقت ذاته - له خصوصيته ودقته، فما كان المفسرٌ ليُقْدِم على النص من فراغ، أو ينطلق من الهوى أو ادعاء البراعة المفتعلة مما لا يجوز مع النصوص المقدسة.

الاجتهاد مطلوب، ولكن في حدود معطيات الفكر والثقافة، فاجتهاد الجاهلين أو ذوي الأهواء يؤثر بالتأكيد في توجهات العامة، ولكنه سرعان ما ينكشف أمام أهل العلم وذوي الاختصاص. ومن أراد أن يجتهد فليقرأ في كتب السلف حول التفسير والتاريخ وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني. . . وغيرها من العلوم المؤهلة للاقتراب - مجرد الاقتراب - من النص القرآني الكريم، ولعل بعضًا من هذا قد تجلَّى في منطق أولئك الأساتذة الأجلاء ممن فسرَّوا سورة الإخلاص أو غيرها، فما ضلوا ولا أضلوا، بل أفادوا وأضافوا إلى تفاسير القدماء ما يحسب لهم من حيث الالتزام بأصول المنهج، والمحافظة على مقوماته ومعالمه، فكانوا خير خلف لخير سلف، منذ امتلكوا أدوات المفسِّر امتلاكهم ثقافة احترام الذات واحترام النص وتعظيم الثوابت والمقدسات. جزاهم الله خيرًا عن كل ما قدموه للإسلام والمسلمين من صدق النوايا وحسن المقاصد، ومن علم يُنتفع به عبر الأجيال.